

الباب الثاني

تطبيقات وملاحظات

تطبيقات وملاحظات

(١) إذا استعرضنا قول بشار في المشورة وهو :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستمن	برأى نصيح أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة	فريش الحوافي قوة للأقوام
وخلّ الهويبي للضعيف ، ولا تكن	نؤوما ، فإنّ الحزم ليس بنائم
وأدن من الشورى الكتوم لسره	ولا تشهد الشورى اسراً غير كاتم
وما خير كفّ أمسك الفلّ أختها	وما خير سيف لم يؤيد بقائم
فإنك لا تستدرك الرأي بالمعنى	ولا تبلغ العليا بغير المكارم

وجدنا أن العناصر الأربعة موجودة فيها ، ولكن كمية عنصر العقل فيها أكبر من كمية العاطفة ، فهو مع جزالتها وعظم معناها ، قليلة العاطفة ، وهذا طبيعي في كل أشعار الحكم ، كحِكْمِ النبي وأبي العلاء المعري ، وزهير بن أبي سلمى ، وغيرهم : فطبيعة أبيات الحِكْمِ يزيد فيها عنصر العقل على عنصر العاطفة : وعلى العكس من ذلك شعر الغزل ، إذ تغلب فيه العاطفة على العقل مثل قول العباس ابن الأحنف :

أمسى بكاك على هواك دليلا	فأزجر دموعك أن تفيض هُمولا
دار الجليس عن الدموع فإن بدت	فانظر إلى أفق السماء طويلا

فهذان البيتان يفيضان بالعاطفة عكس أبيات بشار .

(٢) وإذا سمعنا الشاعر يقول :

وكنتُ إذا ما زرت سُدَى بأرضها	أرى الأرض تطوى لي : ويدنو بعيدها
من الخنيرات البيض ود جليسا	إذا ما انقضت أحدىة لو تعيدها
تحل أحقادى إذا ما لقيتها	وترقى بلا جُرمٍ على حُقُولها

أقول القائل :

يا عاذلى قد كنت قبلك عاذلاً حتى ابتليت فصرتُ صبياً داهلاً
الحب أول ما يكون مجانة فإذا تحمك صار شغلاً شاغلاً
أرضى فيمنضب فأتلى فتمجّبوا يرضى القليل ولا يرضى القاتلاً
أقول الآخر :

وخبرك الواشون أن لن أحبكم بلى : وستور الله ذات المحارم
وإن دما لو تعلمين جنيتيه على الحى : جاني مثله غير سالم
أصد ، وما الصد الذي تعلمينه شفاء لنا : إلا اجتراع^(١) العلاقم
الح الخ

فهذه الأبيات كلها قوية العاطفة ، صادقتها : وتساألنى . ما الدليل على قوتها
وصدقتها . فأقول : إن فيها دلالة على تجربة الشاعر : يعبر عنها فى صدق
وإخلاص يدل عليهما أثر ذلك فى نفس السامع الخبير : ومثل ذلك قول الآخر :

وليل لم يقصره رقاد وقصره له وصل الحبيب
نعم الحب أدرق فيه حتى تناولنا جناه من قريب
فخلنا أن نقطعه بلفظ وترجمت العيون عن القلوب

(٣) إذا سمعت قول القائل بمدح ذا الرئاستين :

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة وإن عظموا للفضل إلا صنائع
ترى عطاء الناس للفضل خسماً إذا ما بدا والفضل لله خاشع
تواضع لما زاده الله رفعة وكل جليل عنده متواضع

أدركت رخص عاطفة الشاعر . فقد بذل كثيراً من قوله فى سبيل حفة من
المال قبضها .

(١) اجتراع من اجترع : إذا ابتلع : والعلاقم جمع علقم : وهو الخنظل وكل شيء صر .

(٤) إذا سمعت قول ابن الفارض .

كهلal الشك لولا أنه أن عيني عينه لم تنأى^(١)

حكمت بأن هذا معنى عادى . وعاطفة مألوفة . وأسلوب ثقيل مبتذل .

(٥) عندما تسمع قول قيس بن الملوّح ، وقد صيد له غزال فأطلقه وقال :

راحوا بصيدورن الضياء وإني لأرى تصيدها على حراما

أشبهن منك محجراً وسوالفاً فأرى على لها بذلك ذماما

أعزز على بأن أروع شهبها أو أن يذقن على يدى حماما

تحس أن قلب الشاعر ينبض من حرارته .

(٦) إذا قرأت ديوان العباس بن الأحنف ، وأبي فراس والمتنبي وأبي العلاء ،

رأيت أو شعرت أن عواطف العباس بن الأحنف أقوى الجميع ، وتليها عواطف

أبي فراس ، ثم تليها عواطف المتنبي ، ثم تليها عواطف المعري ، ولكن : إذا

نظرت إلى قوة العقل عند الجميع ، عكست الترتيب ، فالمعري أولاً ، ثم المتنبي ،

ثم أبو فراس ، ثم العباس .

(٧) إذا سمعت بشاراً يقول فى حسن الحديث .

وحوراء المدامع من معدد كأت حديثها نمر الجنان

وقوله :

وكأنت رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وكأنت تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

أجزت صدقه ، ولكن إذا سمعته يقول وهو أعمى كما تعلم :

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكب

أدركت أنه فى هذا مقلد غير مبتدع ، فلم يرغباً يرتفع ، وإنما سمع شاعراً يصف

الغيار وهكذا ...

(١) يريد أنه أصبح هزلاً حتى أنه لو لم يكن لما رأته عين الناظر إليه ...

(٨) إذا قرأت قول كثير:

ألا ليتنا يا عنزة من غير ريبة بعيران نرعى في الخلاء ونغرب
كلانا له عُمرًا فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى وأجرب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما نفك نرعى ونضرب
وَدِدْتُ وَبَيْتِ اللَّهِ أَنْكَ بَكْرَةٌ هَجَانٌ ، وَأَنْى مُصَعَبٌ نَمَّ نَهْرِبُ
تكون بعيرى ذى غنى فيضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلبُ

أدركت أنها عاطفة صادقة ، ولكنها ساذجة بسيطة لا تنبع إلا من شعور ساذج .

(٩) وقول أبي تمام :

سَمَا لِلْعَلَى مِنْ جَانِبِهَا كَلِيمَا سَمَوَّ حَبَابِ الْمَاءِ جَاشَتْ غَوَارِبُهُ
فَنَوَّلَ حَتَّى لَمْ يَجِدْ مِنْ يَنْبِيلِهِ وَحَارِبَ حَتَّى لَمْ يَجِدْ مِنْ يَحَارِبِهِ
أَرَى النَّاسَ مِنْهَاجَ النَّدى بَعْدَ مَا عَفَتْ مَهَابِعَهُ الْمَثَلَى وَتَحْتِ لَوَاجِبِهِ
فَنَى كُلَّ نَجْدٍ فِي الْبِلَادِ وَغَاثِرِ مَوَاهِبِ لَيْسَتْ مِنْهُ وَهِيَ مَوَاهِبُهُ
فِي أَيِّهَا السَّارَى أَسْرَ غَيْرِ حَازِرِ جَنَّانِ ظَلَامِ أَوْ رَدَى أَنْتَ هَائِبُهُ
فَقَدْ بَثَّ عَبْدُ اللَّهِ خَوْفَ انْتِقَامِهِ عَلَى اللَّيْلِ حَتَّى مَا تَدْبُ عَقَارِبُهُ

تقرؤه فلا تحس بجملة العاطفة ، وإنما هي الأعيب عقلية ، ثم هي عاطفة شخصية ، لا عامة كالوفاء : أفرط في المديح نظير مال قليل أو كثير . . .

فالحكم في قوة العاطفة وسعة الخيال هو شعور السامع وتأثير الأبيات عليه ، وخاصة إذا كان عالماً بالشعر ، خبيراً بمجودته أو رداءته . ذا ذوق فنان .

(١٠) من أمثلة الخيال الخالق ما فعله بديع الزمان من أعمال قام بها الخارث ابن هشام ، وما فعله الحريري من حوادث أبى زيد السروجي فكل تلك خيالات خالقة ، وكذلك أحاديث شهرزاد في ألف ليلة ...

(١١) فلاحظ أن الشعر العربي في المرأة أغلبه مادي ، يبعث على الشهوة ، أكثر مما يبعث على سمو بالروح ، فكثيراً ما يصفون الخمر والرذف ،

ويشبهون العين بالترجس ، واخذ بالورد ، والبنان بالعتاب ، والأسنان بالبرد ،
وقل أن يعتوا بالعتاف ، كقول ابن الرومي :

ليت شمرى إذا أدام إليها كزرة الطرف مبدئ ومعيد
أهي شيء لا تسم العين منه أم لها كل ساعة تحيد
بل هي العيش لا يزال حتى استمدت يدي غرائبا ويعيد
ولسكن مثل هذا قيل ، وربما كان سبب ذلك نظرة أغضب العرب إلى المرأة على
أنها متاع ، كالذي يقول أبو تمام :

كانت لنا ملعبا نلهو بزخرفه وقد ينفس عن جد الفتي اللعاب
ومثل قول المتنبي :

ومن خبر الغواني قاله واني ضياء في بواطه ظلام
(١٢) وإذا سمعنا قول القائل :

وأمرت لؤلؤا من ترجس وسقت وزدا وعضت على العتاب بالبرد
وجدنا أن فيه نوعا من الخيال المؤلف ، فقد ألف بين الدمع واللؤلؤ ، والعين
والترجس ، واخذ بالورد ، والبنان والعتاب ، والأسنان والبرد ونحو ذلك .
(١٣) لما هزم أمية بن خالد بن أسيد ، لم يدر الناس كيف يقولون له ،
فدخل عبد الله بن الأخزم عليه فقال : الحمد لله الذي نظر إلينا أهبها
الأمير ، ولم ينظر إليك ، لأن الله علم حاجة أهل الإسلام إليك ، فأبناك لهم
بجذلان من معك ..

وكتب حمدون إلى عامل عزل عن عمله ، فقال : بلغني أعزك الله انصرارك
عن عملك ، ورجوعك إلى منزلك ، فسرت بذلك ، لعلني أن قدرك أجل وأعلى
من أن يرفعك عمل تتولاه ، أو يضعك عزل منه . فهذا خيال خالق .
(١٤) يقول الشاعر :

ويوم كليهما القطاة محبب إلى صباه ، غالب لي باطل

رُزِقْنَا بِهِ الصَّيْدَ الْعَزِيزَ وَلَمْ نَكُنْ كُنْ نَبْلَهُ مَحْرُومَةً وَحَبَائِلَ
فِيَالِكَ يَوْمَ خَيْرِهِ قَبْلَ شَرِّهِ تَغْتِيبَ وَاشْمِيهِ وَأَقْصَرَ عَاذِلَ
فَالْبَيْتَانِ الْأَوْلَانِ فِيهِمَا خِيَالُ مُؤَلِّفٍ ، جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ قَصْرِ اللَّيْلِ وَإِسْهَامِ الْقَطَاةِ .
وَصَيْدِ الْبَرِّ ، وَوُقُوعِ نَظَرِهِ عَلَى امْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ .

(١٥) قول أبي تمام :

فَسَقَاهُ مِسْكَ الطَّلِّ كَأَفُورِ النَّدَى وَأَمَحَلَّ فِيهِ خَيْرَ كُلِّ سَمَاءِ
خَرَفَاءَ يَنْعَبُ بِالْعَتُولِ خِيَالَهَا كَسَلَاعِبِ الْأَفْعَالِ بِالْأَسْمَاءِ
قول ثقيل على النفس لأنه في نظري من قبيل الوهم .

(١٦) يرى ابن خلدون أن للشعر موضوعات يحسن فيها حيث لا يحسن النثر
كالمدح ، والمجاء ، والرثاء . وهناك موضوعات يحسن فيها النثر حيث لا يحسن
الشعر ، كالمكتابات الرسمية الصادرة عن السلاطين والخلفاء ، وبعبارة أخرى من
الحكومات بعضها لبعض ، فإن الشعر فيها يسمج ، وكذلك ما يشبه الشعر
كالكلام المسجوع ونحوه : فإن ذلك يقلل من جلال المكتوب عنه وله :
ويرى أن الإجابة في الكلام المرسل أصعب منها في الكلام المسجوع ،
لأن الكلام المسجوع يزينه السجع والبديع ونحو ذلك . وأما الكلام المرسل
فيحتاج في الإجابة فيه إلى معان عظيمة ، وأسلوب فخم ، مما يصعب . وهذا هو
السبب أيضاً في أن النثر الجيد أصعب من الشعر الجيد . ويرى أن كلام الإسلاميين
المتقدمين أمثال ابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ في النثر ، وأمثال بشار بن
برد ومسلم بن الوليد وأبي نواس أرقى من الأدب الجاهلي في نثره وشعره ؛ والسبب
في ذلك أن هؤلاء بما عندهم من ملكة أدبية قد رفقوا ملكاتهم بحفظ الجيد
من المنثور والمنظوم ، واقتصروا عليه ولم يشحنوا أذهانهم بما دون ذلك ، فكانوا
إذا قلداً قلدوا العظيم الرافق دون غيره ، فخرج أسلوبهم رفيعاً ، ولم يكن للجاهليين
هذه المقدرة . وذكر أنه قد عاقد عن التقدم في الشعر حفظه للمتون الكثيرة

في نشأته ، وغبتها عليه في كبره ، فلما عاج قول الشعر وقفت هذه المنون المحفوظة عاتق في سبيل جودته .

وهي ملاحظات قيمة .. غير أننا نلاحظ أيضاً أن الشعراء الجاهليين كانوا أصدق في عاطفتهم وشعورهم نحو الأشياء ؛ إذ كانوا ببساطتهم يعبرون عن خالص ما في نفوسهم ، ولم تفسدهم المدنية والحضارة .

(١٧) قال أبو هلال العسكري : « إنما يحسن الكلام لسلامته وسهولته ونصاعته ، وتخير لفظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه أمجازه بهواديته ، وموافقة ماخره لمباديته . فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطالعه وجودة مقاطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ، وكال صوغه وتركيبه . ومتى جمع الكلام بين العذوبة والجزالة ، والمهولة والرصانة . واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من جنف التأليف ، وبُعد عن سماجة التركيب ، ورد على الفهم الثاقب فقبله ولم يردده ، وعلى السمع المصعب فاستوعبه ولم يعجزه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ ، والفهم يأنس بالمعروف ، ويسكن إلى المألوف ، ويصغى إلى الصواب ، ويهرب من المحال . وليس الشأن إيراد المعاني ، فالمعاني يعرفها العربي والعجمي . والقروي والبدوي ، وإنما هو جودة اللفظ وصفاءه ، وحسنه وبهاؤه ، ونزاهته ونقاؤه . وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون ما وصفناه » اهـ .

ولسنا نوافق العسكري على أن العبارة بالألفاظ وصياغتها فقط كما أسلفنا . ويمكن أن يكون المعنى صواباً ، بل إن للمعاني جودة لا تقل عن جودة الألفاظ ، ولها دخل في البلاغة ، كدخول الأسلوب ، كالذي ذكرناه من قبل ، فإذا كان الكلام ألفاظاً رصينة ، وأسلوباً جيداً ، ومعاني صحيحة ولكن مبتذلة ، لم تكن كبيرة شأن في البلاغة ، وكانت جوفاء ، ونرى أن قيمة القطعة الأدبية

في معانيها وأسلوبها معاً ، لا في المعنى فقط ولا في الألفاظ فقط :

(١٨) قال ابن رشيق في العمدة :

لَمَنَّ اللهُ صنعة الشعر ما إذا من صنوف الجهل منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما كان سهلاً للسامعين مُبيناً
ويرون المحال معنى صحيحاً وخسيس الكلام شيئاً ثميناً
فهمُ عند من سوانا يُلامون وفي الحق عندنا يعذروننا
إنما الشعر ما يناسب في النظم وإن كان في الصفات فنونا
فأنى بعضه يشاكل بعضاً وأقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منه على ما تمنى ، ولم يكن أن يكونا
فتناهى من البيان إلى أن كاد حسناً يبين للناظرينا
فكان الألفاظ منه وجوه والمعاني رُكِّبَ فيه عيوننا
إنما في المرام حسب الأمانى يتحلى بحسنه المنشودنا
فإذا ما مدحت بالشعر حرّاً رُمّت فيه مذاهب المشتبهينا
فجعلت النسب سهلاً قريباً وجعلت المديح صدقاً مبيناً
وإذا ما عرضته بهجاء عبت فيه مذاهب المرء كيننا
وإذا ما بكيت فيه على العا دين يوماً للبين والظاعيننا
حُلّت دون الأسمى وذلت ما كان من الدمع في العيون مصوننا
ثم إن كنت عاتباً جئت بالوعد وعيداً وبالصعوبة بيننا
فتركت الذى عتبت عليه حذراً آمناً عزيزاً مهيننا
وأصحّ القريض ما قارب النظم وإن كان واضحاً مستبيننا
فإذا ما قيل أطمع الناس طراً . وإذا ما ريم أعجز المعجزينا

(١٩) روى أنه اجتمع جرير والفرزدق عند الحجاج فقال : من مدحني

منكما بشعر يوجز فيه ، ويحسن صفتي ، فهذه الخلعة له . فقال الفرزدق :

فمن يأمن الحجاج؟ والظير تنق عقرية ، إلا ضعيف العزائم
وقال جرير :

فمن يأمن الحجاج؟ أما عقابه قَرِيٌّ ، وأما عتده فوثيق
بُسرَ لك البغضاء كلُّ مناق كل ذي دين عليك شقيق
فقال الحجاج للفرزدق : ما عملت نبياً ، إن الظير تنق الصبي والحشية ،
ودفع الخلعة إلى جرير .
(٢٠) قال الفرزدق :

إذا نقت الأبطال أبصرت وجهه مضبئاً ، وأعتاق الكفاة خضوع
فقالوا : قد أساء القصة ، وأخطأ التركيب ، إنما كان يجب أن يقول :
أبصرته سامياً وأعتاق الملوك خضوع ، أو أبصرت لونه مضبئاً ، وألوان الكفاة
كأففة . وفي هذا النقد محاولة لإختصاص الشعر للمنطق وليس بذلك .
(٢١) تقدوا عمر بن أبي ربيعة بأنه ينشعب بالمرأة ، ثم يدعها ويشب
بنفسه ، كقوله :

ثم أسطرت تشدق في أنرى تسأل أهل الطواف عن عمر
وإنما توصف الحرة بالحياء والإباء والامتناع ، كالذي يقول :
لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى إلى معروفها لفقير
(٢٢) قال كثير عزة :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلي بكل سبيل
فتقدوه بأنه إن كان مجبها حقاً فلماذا يريد أن ينسى ذكرها؟ هلا قال كما
قال الآخر :

فلا خفف الرحمن ما بي من الهوى ولا قطع الرحمن عن حبها حتى
فما سرنى أرى خلى من الهوى ولو أن لي ما بين شرق إلى غرب
(٢٣) قال قائل لابن الرومي يلومه : لم لا تشبه كتشبهات ابن المتمر . وأنت

أشعر منه ؟ فقال : ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف . ؟ إنما أصف ما أعرف : وهو تصديق لنظرية « تين » فى أثر البيثة فى الأديب .

(٢٤) مدح شاعر أمير المؤمنين المأمون بقوله :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغلاً
فَنَقُدَ : لأنه جعل المأمون امرأة عجوزاً فى محرابها ، وفى يدها سُبُحْتها ، وإذا لم
يشغل الخليفة بأمر الدنيا فمن يدبر أمرها ؟ .

هلا قال كما قال جرير :

فلا هو فى الدنيا مُضِيعٌ نصيبه ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شاغله

(٢٥) قال أبو الطيب المتنبي أول لقاءه كافورا :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً . وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانياً
فقالوا : إنه مجابهة سيئة فى أول لقاء ، كما استهجنوا قول شاعر يصف روضاً :
كان شقائق النعمان فيه ثياب قد روين من الدماء
لما فيه من بشاعة الدماء . وكالذى عيبَ على أبي محجن الثقفى فى وصف قينة :
وترفع السوط أحياناً وتخفضه كما يطنُّ قبابُ الروضة الغردُ
قالوا : فأى قينة تحب أن تشبه بالذبابه ، وكما استهجنوا قول أبي نواس :
ما لرجلٍ المألٍ أخصت تشكى منك الكلالا
فقالوا إن رجلَ المال بغيضة ثقيلة .

وكما استهجنوا قول البحترى فى مدح المعتز بالله :

لا المذل يردعه ولا التّعزُّ نيفٌ عن كريم يصدّه

قالوا إن هذا من أجهن ما مدح به الخليفة ، فمن ذا يعنف الخليفة أو يصدّه ؟ هلا قال
كما قال زهير :

لو كان يقعد فوق النجم من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
(٢٦) قال أبو تمام :

تكاد عطاياهم يحن جنونها إذا لم يعوذها بنعمة طالب
فتقدوه ، فقالوا : ما باله يحوجها إلى الجنون ويلتمس لها العوذ والرقى ؟ لقد
كلف نفسه شططاً .

(٢٧) وعابوا قول الشاعر :

ويوم كطول الدهر في عرض مثله ووجدى من هذا وهذاك أطول
فعاوبه بأنه جعل للدهر عرضاً وذلك ما لم يقل به أحد . وعذره في ذلك أنه اتبع
المنطق ، فكما يكون للدهر طول يكون له عرض . وكان ابن سينا يسأل الله أن
يجعل لحياته عرضاً وإن لم تطل ، ولا بأس بذلك .

(٢٨) أراد أبو نواس أن يهنيء الفضل بن يحيى البرمكي بدار جديدة انتقل
إليها فافتتح قصيدته بقوله .

أربع البلى إن الخشوع اباد عليك وإني لم أخنك ودادى
وقال في ختامها :

سلام على الدنيا إذا ما قدتمُ بنى برمك من رأسمين وضاء
فتطير منها الفضل واشمأز حق كلح وجهه وظهرت الوجحة عليه .

وهذا كقول أبي الطيب حين زار كافورا الإخشيدي في أول لقاء ، فابتدأ
قصيدته بقوله :

كنى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب النايا أن يكن أمانيا
كما تقدم .

(٢٩) قال أبو تمام :

فحرام عليك أن تفرعىها مة قلبى بدمعك المهبلى

ويقول :

كلوا الصبر مسراً واشربوه فإنكم
أثرتم بعير الظلم والظالم بآرك
وكلاهما تخيلات باردة من قبيل ما أسمىناه « الوهم » .

(٣٠) يقول مسلم بن الوليد في رثاء رجل :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر

ويقول في الهجاء :

قبحت مناظره فحين خبرته حسنت مناظره لقبح الخبر

ويقول في مدح رجل بالشجاعة :

يجود بالنفس إن ضن الجوادُ بها والجودُ بالنفس أقصى غاية الجود

ويقول في الغزل :

هوى يجمد وحييب يلعب أنت لقي بينهما معذب

فكلها من باب الخيال المؤلف الجيد . وكذلك قول الشاعر في الهجاء :

لو اطلع الغراب على تميم وما فيها من السوءات شابا

فقال جرير :

إذا رضيت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وقال الآخر :

وإذا تسرك من تميم خصلة فلما يسوؤك من تميم أكثر

وقول الآخر :

ويُقضى الأمر حين تعيب تيم ولا يُستأذنون وهم شهودُ

وقول الآخر :

ألم ترأنهم رقوا بلثوم كما رقت بأذرعها الحبير

وقول الآخر :

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلهم قالوا لأهم بولى على النار

وكلها صور جيدة .

(٣١) إذا سمعت قول القائل :

وَحُمُّ انْتِلاَقِي بَيْنَنَا زَادَنِي سُقْمًا
وإذا قلتُ إني مُشْتَفٍ بِلِقَائِهَا
وقول جميل :

يَمُوتُ الهوى مني إذا ما لقيتها
ويحيا إذا فارقتُها فيعود
وقول جرير :

فَلَمَّا اتَّقَى الحَيْنُ أَلْقَيْتُ بالعَصَا
ومات الهوى لما أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ
وقول السلولي :

بَيْنُ الجارِ حِينَ يَبِينُ عَنِي
ولم تَأْنَسُ إِلَى كِلابُ جارِي
وتظن جارتي من جنب بيتي
ولم آسِرْ بستر من جدار
وتأمن أن أطلع حين آتني
عليها وهي واضعة الخمار
كذلك هدى آتاني قديما
توارنه النجار عن النجار

فكل هذه الأبيات تدل على عاطفة حارة وشعور حي وتجربة صادقة .

(٣٢) دخل عمرو بن سلم الخاسر على المهدي فأنشده :

إِن الخِلافةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلافةِ
حتى استقرت في بني العباس
شدت مناكب ملصكم بخليفة
كالدهر يحاط لينه بشماس
فأسر له بعشرين ألف درهم . فقال :

أقوى سؤال السائلين بجوده
ملك مواهبه تروح وتفتدى
هذا الخليفة جوده ونواله
نقد السؤال وجوده لم ينفد

فهذه عاطفة شخصية رخيصة دعا إليها ما أعطاه من المال .

ومثل ذلك قول منصور النمرى :

خليفة الله إن الجود أودية
أحلك الله منها حيث تجتمع
إن أخلف الغيث لم تخلف أنامله .
أوصاق أسر ذكرناه فيتبع

(٣٣) رواية ألف ليلة وليلة ومقامات بديع الزمان ومقامات الحريري أمثلة

من الخيال الخلاق وهي أيضا من أمثلة التصميم المنكك وهي أيضا من الأمثلة على الرواية التي تدور حوادثها على الأشخاص أكثر مما تدور حوادثها على الحوادث .

(٣٤) عند علماء العربية ما كان تسعة أبيات فأكثر ستمى قصيدة . وإلا ققطمة . ونظرا لأن شعراء العرب التزموا القافية ، وهو التزام عسير ، فقد قصر نَفْسُهُمْ ، ولم يطل شعرهم طول الشعر الأفرنجي المرسل ، وربما عدّ من أطولهم شعرا ابن الرومي ، فبعض قصائده تبلغ أربعمائة بيت ، وذلك لمنهجه السهل في الشعر ، ولأنه إذا عمد إلى معنى لم يتركه حتى يصفّيه .

والشعر العربي أكثره غنائي ، فقليل من شعر العرب شعر ملاحم أو شعر تمثيلي . والقصيدة عادة عندهم تبدأ ببيكـ الأطلال ، ثم بوصف الطريق الذي رحل فيه الشاعر ، ووصف الناقة أو البعير ، ثم الدخول من ذلك على المدح . وقل في الشعر الجاهلي أن نرى قصيدة قيلت في الغزل البحت ، إنما كان ذلك في العصر الأموي . .

وقد أتقن العرب والحق يقال الوصف ، وخصوصا وصف البادية وما فيها ، ويكادون إذا وصفوا ناقة أو بعيرا أو أرضاً وصفوها وصفاً دقيقاً ، لا يكادون يتركون شيئا فيها . واشتهر بالوصف ذو الرئمة ، والقطامي وغيرهما . .

ولكن مع الأسف ، كما قل في الفقه الاجتهاد المطلق في العصور المتأخرة ، وإنما أجازوا الاجتهاد المقيد ، كذلك كان الشأن في الأدب . فلم يفتحوا في الشعر ولا في النثر أبوابا جديدة ، بل كل ما فعله مجددوهم أنهم فتحوا الأبواب القديمة مع تعديل بسيط ، وإذا كان الأولون يتغزّلون في المؤنث ، فقد تغزّل أبو نواس في الذكر ، والغزل هو الغزل . . . وإذا رثى الأولون أولادهم أو إخوتهم رثى البحتري إيوان كسرى ، ورثى المتأخرون المدن كطليطلة ونحوها . أما موضوع جديد مبتكر فلم يوفقوا فيه .

حتى أبو نواس الذي استهجن بكاء الأطلال والدور ، ودعا إلى بكاء
القصور ، والتغزل بابنة الكرم ، والتنزي الذي يقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدمُ أكل فصيح قال شعراً مقم
عادا فبدأ شعرها بالغزل والنشيب بالنساء ، وبكاء الأطلال . والسبب في أن
دعوتها لم تنجح أنهما دعوا إلى مدحيهما في خفوت ، ولم يكونا مؤمنين حق
الإيمان بما يقولان ، ومن جهة أخرى كانت مدرسة الرجعية كالنحويين
والصوفيون قوية مسموعة الكلمة ، فحتموها كما كان الشأن في المحدثين مع
المعتزلة ، فقد اتصروا المحدثون أخيراً على المعتزلة ، فمنعوا من الابتكار ، وساد
المقلدون على المحدثين .

وحتى أوزان الشعر قد حصرها الخليل في ستة عشر من عهد الجاهلية إلى
يومه ، وكل ما فوله المتأخرون أن قلدورهم يخرجوا عنها إلا في حدود ضيقة .
وليست البحور إلا موسيقى ، والأذن الموسيقية متغيرة ، فما كان منها يناسب
موسيقى أبي إسحاق الموصلي قد لا يناسبنا نحن ، بدليل أن أغانيها اليوم غير
أغانيهم ، فكان يلزم أن نجد هذه الأوزان ، فنجمها مثلاً ستين بدل ستة عشر ،
كما جدد شعراء الفرج في أوزانهم ، ولكن هو الهدود الشامل ، والعقل الجامد .
وحتى في العصور الحديثة إنما جدد الشعراء والكتاب بعض الشيء ،
لا ابتكاراً ، ولكن انتقالاً من تقايد العرب إلى تقايد الغرب ، والكل تقايد .
وقد يكون هذا التقايد مائماً لا يناسب ذوقنا ، كما لا تناسب الموسيقى العربية
الأذن الشرقية والله يوفق .

(٣٥) من محاسن الكتب الأدبية العربية أنها عُنيتْ بالتعرض لأبيات
من الشعر قيلت في معنى واحد ، ووازنت بينها ، وبيان أيها أحسن ثم كقول بشار :
خليلٌ ما بال الدجى ليس يبرحُ وما لعمود الصبح لا يتوضح

أضلّ النهارُ المستنيرُ طريقَه أم الدهرُ ليلَ كلِّه ليس يبرح
وطالَ علىَّ الليلُ حتى كأنّه بِلَيْلَيْنِ موصولٍ فما يتزحزح
ويقول العباس بن الأحنف في هذا المعنى :

أيها الراقدون حولي أعينوا لي على الليلِ حِسْبَةً واثِّجَارًا
حدثوني عن النهارِ حديثًا أو صِفْوهُ فقد نَسِيتُ النهارًا
ويقول آخر :

أرقتَ ولم تم عنك الهمومُ وعاد قوادك الطربُ القديمُ
فهل ذهب النهارُ فعاد ليلاً وهل تركت مطالعها النجومُ
ويقول آخر :

يا طولَ ليلي ما أنامُ كأنما في العينِ متى عاثرُ مسجورُ
أرعى النجوم إذا تهورَّ كوكبُ كلُّ لآخرَ ما يكاد يدورُ
إن طال ليلي في الإسارِ فقد أتى فيما مضى دهرًا علىَّ قصيرُ
ويقول الآخر :

رقدتَ ولم ترثِ لساها وإيالُ الحبِّ بلا آخرِ
ويقول الآخر :

تبيت تراعى الليلَ ترجو نفاذه وليس ليلي العاشقين نفاذُ
ويقول آخر :

وطالَ ليلَ الهوى عليه وما أمدَّ ليلَ الهوى وأطوله
فبات يستمطر الدموعَ وإن كان ارفضاض الدموع أنحلّه
ويقول آخر :

سألت نجومَ الليل هل ينقضى الدجى فخطَّ جوابا بالثرثيا كخط لا
وما عن هوى سامرتهَا غيرَ أنتى أنافِسُهَا المجرى إلى الرتبِ العلا

ويقول آخر :

ليل أضلّ الفجرُ منه سبيلَه
ما تنقضى عذباتُ نفيّةِ آخرِ
حتى حسبتُ به الكواكبُ قفلاً
من جِنِحِهِ حتى تُعيد الأولا
ويقول الآخر :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة
حادت سَوَارِيهِ وَقفا لآحراكِ بها
أضلت القصد أم ليست على ملكِ
كأنها جنث صرعى بمعتوك
وقال آخر :

ليل تحير ما ينحط في جهة
نجومه ركدت ليست بزائلة
كأنه فوق متن الأرض مشكول
كأنما هن في الجـو القناديل
وقال آخر :

والنجم في أفق السماء كأنه
أعنى تحير ما لديه قائد
وقال آخر :

وكم ليل قد لقيت هونها
طالت دياجيتها فحننا أنها
بهمة فوق السماء كالسما
تعطف منهن علينا ما مضى
وقال آخر :

يا ليل بل يا أبد
يا ليل لو تلتقى الذي
أنا ثم عنك غد
ألتقى بها أو تجد !
ضعف منك الجلد
تشكو الذي لا تجد
وقف عليها مقلتي
وقف عليها مقلتي

ويقول بشار :

طال هذا الليل بل طال السهر
ولقد أعرف ليلي بالقيصر

لم يَطُلْ حتى جناني شادين
فكان الهم شخص مائل

وقال آخر :

لا أظلم الليل ولا أدعى
ليلي إذا شامت قصير إذا

وفي هذا المعنى يقول بشار :

لم يطل ليلى ولكن لم أم
وقال آخر :

لا أسأل الله تغييراً لما صنمت
فالليل أطول شيء حين أفقدها

ويقول الآخر :

ويوم من الأيام لم ألقها به
كدام من الأعوام : أما نهاره

ويقول ابن المعتز :

لا أرتق الله من أهدي لي الأرقا
بدرٌ تعرض لي عمداً ليقتلني

وقال آخر :

لست أدري أطل ليلى أم لا
لو تفرغت لاسـتـطالـة ليلى

وقال المتنبي :

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب
فإن نهارى ليـلـة مدلهمة

ورُدُّوا رُقادي فهو لحظ الحباب
على مقالة من قدكم في غياهب

وقال امرؤ القيس :

فيا لك من ليلى كأن نجومه بكل مغار القتل شدت يذبُل
وهكذا ...

والقول يطول ويتشقق لو قارنا هذه الأبيات بعضها ببعض ، وعرفنا ما امتاز به بعضها من معان وأسلوب ومن خيال ، وما قصر بعضها في ذلك ، فأترك ذلك لرأيك غير أني أقول ربما كان خيرا قول الشاعر :

يا ليل بل يا أبد أنا ثم عنك غدُ

لخفة روحه ، وجودة موسيقاه . وربما كان أقربها إلى الواقعية قول بشار :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

وهكذا يمكننا ترتيب هذه الأبيات من حيث جودة المعنى ، وقرب الخيال أو بعده . وجودة الموسيقى أو قبحها ونحو ذلك .

وننتقل بعد ذلك إلى معنى آخر :

يقول بشار :

عِيُّ الشَّرِيفِ يَشِينُ مَنْصَبَهُ وترى الوضيعَ يزِينُهُ أدبُهُ
والصدقُ أَفْضَلُ ما حَضَرَتْ بِهِ ولربَّما ضَرَّ الفَتَى كَدْبُهُ
خُذْ مِنْ صَدِيقِكَ غَيْرَ مَتَعِبِهِ إِنْ الجِوَادِ يُوودُهُ نَقَبُهُ
يَرُدُّ الحَرِيصَ عَلى مَتَالِفِهِ والليثُ يبعثُ حَتْفَهُ كَلْبُهُ

وقال آخر :

لا خير فيمن له أصلٌ بلا أدبٍ حتى يكونَ على ما فاتهُ حدِبا
كم من شريفٍ أخى عيٍّ وطمطيةٍ فاذمِنَ لَدَى القَوْمِ معروفٍ إذا انسابا
في بيتٍ مكرُمةٍ آباؤهُ نُجُبٌ كانوا رُووساً فأمتى بعدهم ذنبا
وخاملي مَقَرَفِ الآباءِ ذى أدبٍ نال الملاء به والجاه والنسبا

وقال آخر:

إنك إن كنت عالماً زادك الع
وإنما تفضل البهائم بالعل
تجنب الجهل ما استطعت فإن
وقال آخر:

وأيتُ العزّ في أدبٍ وعلمٍ
وما حُسن الرجال لهم بزِينِ
وقال آخر:

حسب الكذوب من البلد
مَنْ إن سمعت بكذبة
وقال آخر:

لا يكذبُ المرءُ إلا من مهنته
أعضُ جيفةَ كلبٍ خيرَ رائحةٍ
ثم ننتقل إلى معنى ثالث:
قال بعض الشعراء:

قومٌ لحاء المعالي في وجوههمُ
وقال البحتري:

يريك تائقُ المعروف فيه
وقال الآخر:

ووجهٌ رَقَّ ماء الجود فيه
وقال آخر:

يزيد معروفته بالبر منزلةً
ترى مياه الندى تجري بأمله
كما يزيدُ بهاء الخوَدِ بالخمرِ
ترقرقُ الماء في الهندية البئرِ

وقال أوس :

كأن ريقتها بعد السكرى اغتبت
أو من معتقة ورهاء نشوتها
من ماء أدكن في الحانوت مشاح
أو من أنايب رمان وتفاح
وقال ذو الرمة :

كأن على فيها وما ذقت طعمه
وقال آخر :

ذات خدين ناعمين ضنينين
وثنايا وريقة كغدير
من بمنا فيهما من اللقاح
من عقار وروضة من أقاح
وقال آخر :

قام بقلبي وقعد
يا صاحب القصر الذي
واعطشنا إلى فيم
إن قويم الناس فحسبي
وقال آخر :

كأن المدامة والزنجبية
يعل به برد أنيابها
ل وريح الخزامى وطعم العسل
إذا النجم وسط السماء استقل
وقال العباس بن الحسن العلوي :

حور تحور إلى صبا
وكأنا برضابهن
ك لأعين منهن حور
جنى الرحيق من المحور
د بماء رمان النحور

وهكذا . . .

وقد جرتهم هذه المقارنة إلى الإمعان في القول في السرقات الشعرية ، فزعموا
أن الفضل في ذلك لأول قائل لهذا المعنى ، وأن من بعدهم سرقوا منه . ويعجبني

في هذا الباب قول عبد العزيز الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وملخصه « أن السرقة إنما تعدّ سرقة إذا أتحدت الألفاظ والمعاني ، أما إذا أتحدت المعاني فقط أو تقاربت ، فمن العسير أن نعدّها سرقة ، لعدم استطاعتنا الجزم بأن هذا مسروق من ذلك ، فربما تواردت المعاني على الناس : ووقع الحافر على الحافر ، خصوصاً وأنه ليس بالليل صياغة المعنى الواحد في أسلوب غير أسلوب الآخر . وقد يزيد الآخر على الأول معنى من المعاني أو صوغه في ثوب جديد حتى كأنه معنى جديد . كما لا نستطيع أن نقول إن هذا معنى مبتكر ، فقد غاب عنا شعر كثير قد يكون الشاعر وقع عليه قلده ونحن لا نعرفه ؛ لأجل ذلك لا نبالغ في عدّ هذا سرقة . وساق على ذلك أمثلة كثيرة » وهو قول حق ، يردّ غلّو الناقدين في باب السرقة الشعرية .

وننتقل إلى معنى آخر :

وقال ابن المعتز :

يا رب سرّ كنار الصخرِ كامة
لم يتسع منطق فيه بيّاحة
أمتّ إظهاره مني فأحياني
حزماً ولا ضاق عن مشواه كئاني
وقال آخر :

أيها السائل دع سرّ نفسي
إنما نفسي لسرى قبر

وقال كثير :

كرّيمُ يميتُ السرّ حتى كأنه
إذا استخبروه عن حديثك جاهلُ
وقال آخر :

وما السرّ في صدري بميت بقبره
ولكنني أخفيه حتى كأنني
لأنني رأيت الميت ينتظر النشرا
بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
أخذه المتنبي فقال :

وسرّكم في الحشا ميتُ
إذا نُسرّ السرّ لا يُنشر

(٣٦) لابن الأثير في المثل السائر ملاحظات نقدية صحيحة ، أشبه ما تكون بما في كتب النقد الأوربية ، مثل ذلك :

(١) فعنده أن الفصاحة تكون في الألفاظ ، والبلاغة في المعاني ، والكلام الفصيح هو الظاهر البين ، وأعنى بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة ، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها مألوفة الاستعمال ، دائرة في الكلام . وإنما كانت كذلك لحسنها ، لأن أرباب النظم والنثر غرّبوا اللغة ، وسيروا ألفاظها ، واختاروا الحسن من الألفاظ واستعملوه ، وتركوا القبيح منها وهجروه ، فإن قيل : من أي وجه علم أرباب النظم والنثر الحسن من الألفاظ أو القبيح منها ، قلت : إن هذا من الأمور المحسوسة ، فالألفاظ داخلة في حيز الأصوات ، فالذي يستلذه السمع منه ويميل إليه هو الحسن ، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح . ألا ترى أن السمع يستلذ صوت البلبل من الضير ، وصوت الشحرور ، ويميل إليهما ؟ ويكره صوت الغراب ، ونهيق الحمار ، وينفر منهما ... وكذلك الألفاظ ، فأنظة اللزنة والديمة حسنة يستلذها السمع ، ولفظة البُعاق قبيحة يكرهها السمع ، وكلها من صفة السحاب . ومن ذلك ترى أن لفظة اللزنة والديمة مألوفة الاستعمال ، ولفظ البُعاق متروك لا يستعمل . ولا يستعملها إلا جاهل بحقيقة الفصاحة ، أو من ليس له ذوق سليم .

(ب) إنَّ أعجب شيء في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة واضحة كلها ، فإذا نظر إليها مع الترتيب ، احتاجت إلى استنباط وتفسير ، وهذا موجود في القرآن ، وفي الأخبار المروية والأشعار والخطب والمكاتبات . مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « صومُكم يوم تصومون ، وفطركم يوم تفطرون » .

وقول أبي تمام :

وَلَمَّتْ فَأَظْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ دُونَهَا وَأَضَاءُ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ مُظْلَمٌ

ونحو ذلك .

(ح) يقول المبرد: ليس أحد في زمانى إلا ويسألنى عن مشكل من معانى القرآن أو معانى الحديث أو غير ذلك من مشكلات علم العربية ، فأنا إمام الناس فى زمانى هذا ، ومع ذلك إذا عرضت لى حاجة إلى بعض إخوانى وأردت أن أكتب إليه شيئاً فى أمرها ، أحجم عن ذلك لأنى أرتب المعنى فى نفسى ، ثم أحاول أن أصوغه بألفاظ مرضية فلا أستطيع ذلك . واقصد صدق فى ذلك . وقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السوقة أرباب الحِرَاف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ، ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ...
« أقول » لأن البلاغة محتاجة إلى حُسن استعداد ، وكثرة سران وتدريب ، ومن فقدما أو أحدهما ، خلا منها .

(د) يجب على الناظم والناثر أن يتجنب ما يضييق به مجال الكلام من بعض الحروف ، كالثاء والذال والحاء والشين ، والصاد والطاء والظاء والعين ، فإن فى الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف ، وقد يأتى الناظم بقصيدة على حرف من هذه الحروف فيأتى فيها بالبشع المكروه ، كما فعل أبو تمام فى قصيدته الثائية التى مطلعها :

* قِفْ بِالطَّلُولِ الدَّارِمَاتِ عِلَانًا * الخ

وكما فعل أبو الطيب فى قصيدته الشينية التى مطلعها :

* قِفْ بِالطَّلُولِ المَدَارِمَاتِ عِلَانًا * الخ

وكما فعل أبو الطيب فى قصيدته الشينية التى مطلعها :

* مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقٍ عَلَى فِرَاشٍ * الخ

وكما فعل ابن هانى فى قصيدته الخائية التى مطلعها :

* سَرَى وَجَنَاحُ اللَّيْلِ أَتَمُّ أَفْتَحُ * الخ

(هـ) إن الألفاظ تتبع الزمان ، فقد تكون الكلمة لطيفة فى زمن لا عيب فيها ، ثم يأتى زمن تعاب فيه ، لاستعمالها فى معنى ردىء ، كلفظ « الصَّرم

والصَّرم « ولذلك لم تُعَبَّ على الشاعر المتبدّي كَأبي صخر الهذلي في قوله :
قد كان صَرْمٌ في المات لنا ففجلتَ قبل الموت بالصَّرم
ولكنها عيبت على المتنبي المتحضر في قوله :
أذاق الغواني حسنه ما أدقتني وعفّ فجازاهنَّ عني بالصرم
(و) من الجوع ما يحسن استعمالها ، ومنها ما يسوء . كجمع العين الناظرة ،
والعين من الناس . فإن العين الناظرة خير ما تجمع على عيون . وعين الناس
تجمع على أعيان . وهذا يرجع فيه إلى الاستحسان لا الوضع اللغوي . وقد شد
أبو الطيب في قوله :

والقوم في أعيانهم خَزَرَ والخيل في أعناقها قَبَلُ
فجمع العين الناظرة على أعيان ، والدوق يَأبى ذلك ، ولا تجدله على اللسان
حلاوة وإن كان جائزاً . وأعجب من ذلك أنك ترى وزناً واحداً من الألفاظ
يحسن مفردة ، ولا يحسن جمعه ، وأحياناً يحسن جمعه ، ولا يحسن مفردة وأحياناً
يحسنان معاً . . فن النوع الأول عرْقوب وعراقيب ، ومن النوع الثاني بهلول
وبهاليل ، ومن النوع الثالث جمهور وجاهير ، وعراجون وعراجين .

وهناك ألفاظ على وزن واحد يحسن بعضها ، ويقبح بعضها كالثلث والرابع
إلى العُشر ، فالثلث والخمس والسدس حسنة ، والسبع والثمن والتسع والعشر
ليست كذلك ، والجميع على وزن واحد .

(ز) ثم انتقل إلى الكلام على المعاني ، فقال . إن المعاني على ضربين :
أحدها ما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، وذلك مثل
وصف المتنبي للحمى ، وهو :

وزائرةٌ كأنَّ بها حياءُ فليسَ تزورُ إلا في الظلام
بذلتُ لها المطارفَ والحشايا فعاقتُها وبانت في العظام
كأن الصبح يطردها فتجري مدامعُها بأربعة سِجّام

تراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
وهذا يقع للشاعر الفينة بعد الفينة ، وعددها عند كل شاعر ليس بالكثير .
فقد قالوا : إن أبا تمام اخترع نحو عشرين معنى جديداً ، وأبا الطيب خمسة .
وكتقول أبي نواس في الهجاء :

شربك في السراب إذا عطشتَ وخبزك عند منقطع التراب
وما روحتنا لتذببنا ولكن خفت تغزية الذباب
وكتقول أبي تمام في الشيب :

يستثير الهموم ما اكتن منه صُمدًا وهي تستثير الهموما
وقول ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرن من الصحاب
إلى غير ذلك .

والنوع الثاني من المعاني ، هو الذي يحتذى فيه على مثال سابق ، ومنهاج مطروق . وهذا أكثر ما يستعمله أرباب هذه الصناعة ، فالمدأخر إنما يصوغ المعنى القديم فيصوغه صياغة جديدة ، وذلك كالأبيات التي ذكرناها من قبل في وصف طول الليل .

(ح) وتعرض أخيراً للسرقات ، شأنه في ذلك شأن من سبقه ، وقسمها ثلاثة أقسام . « نسخاً وسلخاً ومسحاً » فالنسخ أخذ اللفظ والمعنى برمتيه من غير زيادة عليه ، والسلخ أخذ بعض المعنى ، والسلخ إحالة المعنى إلى مادونه . وقد أطل في ذلك وعدد الأمثلة على الأقسام الثلاثة . فمن النوع الأول قول الفرزدق :

أعدل أحساباً لثاماً حاتها بأحسابكم ، إنى إلى الله راجع
فقال جرير :

أعدل أحساباً كراماً حاتها بأحسابكم ، إنى إلى الله راجع

ومن النوع الثاني قول بعض الشعراء :

لقد زادني حُبًّا نفسيَ أني بغيض إلى كل امرئ غير طائل
فقال المتنبي :

وإذا أتيتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنى كامل

ومن النوع الثالث قول حسان :

ما إن مدحتُ محمداً بمقاتي لكن مدحتُ مقاتي بمحمد

فقال أبو تمام :

فلم أمدحك تفخياً بشعري ولكني مدحتُ بك المديحا

وهكذا أكثر من الأمثلة والشروح ... اه .

(٣٧) وما يؤسف له أن كتاب الأدب العربي قصروا بحتمهم ونماذجهم

ونقدم على النوع المعروف (Bell-Lettre) أو الأدب الجميل أو الأدب الصرف ؛

وكان خيراً لم أن يفهموا الأدب بالمعنى الواسع حتى يشمل الفلسفة وحتى

يشمل مثل مقدمة ابن خلدون وحتى يشمل الأدب الصوفي ، أمثال شعر ابن

الغارض ، وحكم ابن عطاء الله ، فإن ذلك يزيد أنواع الأدب فلا يكون

قاصراً على ما قلت معانيه وُجِّت أفاضه . ومن ميزة هذا الذي أقول إن هذا

النظر يستطيع أن يفدى الأدب العربي بالمعاني أكثر مما يفديه الأدب الصرف .

وكان من عيوب طريقتهم واقتصارهم على الشعر المتعارف والنثر المسجوع

وتمصّبهم لهذا النظر أن كان الشعر الجاهلي كأنه وحىٌ يوحى إذ لم يتذوقوا القصص

كثيراً ، لأن الجاهليين لم يتذوقوه ، وخصوصاً القصص الذي ورد عن الأمم

الأخرى كالف ليلة وليلة ، فإننا لم ندرك قيمتها إلا بعد أن رأينا المستشرقين

يمجدونها ، فأخذنا نقدم كأننا عباد تقليد فقط .

ومما يؤسف له أيضاً أن الأدب العربي يميل إلى التركيب أكثر مما يميل إلى التحليل ، وخير الأدب ما وجد فيه العنصران معاً : التحليل في موضعه والتركيب في موضعه . ومن أثر ذلك كثرة الأمثال في الأدب العربي وقلة الروايات . فالمثلُ نظراً مركب والروايات نظراً محلل ، ثم إنه يكثر في الأدب العربي الاستطراد وعدم حصر الذهن في الموضوع الواحد ، ولذلك كثيراً ما يجد الباحث الموضوع الذي يبحث عنه في غير مظانه . وكان الأليق بالمجددين أن يتحرروا من هذه العيوب . كذلك هم يميلون إلى معان جزئية أكثر من المعاني الكلية ؛ وفاتهم العناية بوحدة القصيدة واكتفوا بالعناية بوحدة البيت ، لأن وحدة القصيدة تتطلب نظراً كلياً ، وأما وحدة البيت فتتطلب نظراً جزئياً . وهذا المعروف في الأدب معروف أيضاً في الفقه ؛ فقلما نرى في باب من أبواب الفقه قواعد كلية كما فعل صاحب البدائع مثلاً وإنما أكثر الكتب موضوعة على أحكام جزئية تستفاد منها القاعدة الكلية مثل (من اشترى عبداً ... ومن باع عبداً ...) . وربما كان المسئول الأول عن هذا شعراء الجاهلية فقد بدأوا القصيدة بالبكاء على الأطلال ثم ثنوا بالرحلة إلى المدح وفي أثناء الرحلة عرجوا على وصف الناقة ، وإن لم يفعلوا ذلك ظاهراً فعلوه باطناً ، فبكوا الأطلال في أنفسهم ورحلوا في ضميرهم ثم قالوا :
دع ذا وعد القول في هزم
وقد أجاد أدياء العرب في الإيجاز أكثر مما أجادوا في الإطناب ، وعدوا الإيجاز في البلاغة أقوى من الإطناب . مع أن الإيجاز يحسن في محل والإطناب يحسن في محل آخر . ولذلك تجدهم برزوا في الحكم وفي المراسلات وعدوا باباً كبيراً من أبواب الأدب التوقيعات وهي جمل مركزة تشير إلى الغرض المقصود ، وما يعبر عنه العربي في مثل يعبر عنه الأديب الفرنسي أو الإنجليزي في رواية تبلغ أكثر من مائتي صفحة .

(٢٨) من غلبة عنصر التقليد في الأدب العربي أنا نرى أدب كل أمة

عربية يشبه أدب الأمة الأخرى مع اختلاف التاريخ والحوادث التي تقع فيها ، فأدب الأندلس يشبه أدب مصر في موضوعاته وأساليبه وهما يشبهان أدب العراق ؛ حتى نيعسر على القارئ أن يدرك الشخصية الممتازة لكل قطر مصرية كانت أو أندلسية أو بغدادية ؛ حتى الأخطاء التي دفع فيها بعضهم وقع فيها الآخرون كبده المديح بالغزل والتقييد بالوزن المعروف ، والمحاسن التي كانت لأدب قطر ظلت محاسن لآداب الأقطار الأخرى كالانتقال سريعا من وصف الحادثة إلى حكمة عامة . وأظن أن لو كانت هذه الآداب رقعة أخرى في العالم يسكنها أم متعددون لكان الاختلاف بينهم أوضح . وربما كان السبب في ذلك خضوعهم لدين واحد يوحى إليهم بأفكار متشابهة . والدين يوحى بتمجيد العرب وتمجيد العرب يوحى بتقليدهم في أساليبهم ومعانيهم .

خصوصا وأن المعجزة الكبرى للمسلمين القرآن العربي . وربما كان اتخاذ الأدباء القرآن مثلهم الأعلى سبباً في محافظتهم على اللغة الفصحى والتقارب بين أدباء كل قطر في أسلوبه ومعانيه .

(٣٩) يعتقد بعض الباحثين أن من أسباب انحطاط المسلمين وخاصة العرب الأدب العربي نفسه ، وتعليهم لذلك أن أكثره قيل في المديح والملق والغرام ، وعلى حد تعبير بعضهم أكثره أدب معدة لأدب قوة . ولو نظرنا إلى الأنواع الأخرى لكانت كذلك أو أقرب إليها ، فاللقامات للبديع أو للحريري أو لغيرهما إنما هي مبنية على الكدية ، والكدية استجداء ، وهي من أحط أنواع الخلق بل هي أحط من المديح . ثم إن الأدب العربي من نوع الأدب المكشوف الذي لا يتخرج من ذكر العورات بأسمائها ، وحتى كان يُسمح بمثل هذا الفحش في مجالس الخلفاء والأمراء من غير تحرز ولا إيماء . ومعجم كقاموس الفيروزابادي مملوء بالفاظ الفحش حتى لا تكاد تخلو صفحة منها . هذا إلى مجون سخيف

كعجون الحجاج وابن سكرة . فإذا طبعت هذه الأشياء كلها في عقل الناشئ .
أتلقت ملكاته وحركت شهواته .

هذا قولهم ولكن هل هو صحيح ؟

فبعض شعر المديح قوى جميل يبعث في النفس أخلاقاً قوية كما أن باب
الأدب في العربية عظيم وواسع سعة لا حد لها ، وكذلك باب الحكم ، فالحكم
الصحيحة يجب أن يُنظر فيها إلى هذا وذاك . والعيب عيب من اختار لا عيب
من قال . وكم رأينا من رجال كصعب بن الزبير وهشام بن عبد الملك وأبي جعفر
المنصور قاموا بأعمال عظيمة لذكورهم أبياتاً عظيمة دفعتهم إلى تقديم نفوسهم خوفاً
من العار أو إباءاً من النذل أو نحو ذلك .

وعابوه أيضاً بأنه أميل إلى الخيال منه إلى العقل وخصوصاً في الشعر ، فليس
فيه شعر فلسفي عميق إلا قليلاً ، وقاتهم أن أشعار أبي العلاء المعري وابن الشبل
البغدادي وابن سينا وغيرهم مملوءة بالفلسفة والحكمة . ورغم ما جاءهم هذا الظن من
أن الأدب العربي لما عرضوا نماذجه امتنعوا منها كتب العقل كقائمة ابن خلدون
وكتب التصوف كشعر ابن الفارض وجلال الدين الرومي وكتب الحكمة ككفيلة
ودمنة وكتب التاريخ كالطبري والفخري مع أنها في صميم الأدب وكانت خليقة
أن تظهره بمظهر الغنى .

وعابوه أيضاً بأنه وإن التفت من قديم إلى الطبيعة فقد عني بالصور البهلوانية
ولكنه لم يتفنن بحبها . والشاعر الحق في الطبيعة هو من سلك إحدى الطريقتين :
إما أن يذوب فيها حتى يفنى وإما أن يتشربها حتى يستوعبها ؛ ولم يفعل
الشاعر العربي شيئاً من ذلك بل أخذ يلعب بصورها كما يلعب الحواوي بالمناظر
والصور . وهذا حق ؛ فبعض الشعر الأوربي سلك هذا المسلك أو الآخر فكان
رائعاً حقاً وإن حدث ذلك في العصور الأخيرة بعد أن كان الشاعر الأوربي
لا يأبه له .

وعابوه أيضاً بأنه يكاد يقتصر على نوع واحد من أنواع الشعر ، وهو الشعر الغنائى وليس فيه شعر ملاحم ولا شعر تمثيلى إلا فى القليل النادر . وربما دعا إلى ذلك التزامهم البحر والقافية فإن طبيعة الملاحم والشعر التمثيلى تتطلب طول النفس وطول النفس يتطلب تغير البحور والقوافى ، ولكن فى الأدب العربى شىء من الملاحم كما فى ملحمة أبى زيد الهلالي وإن كان بعضها نثراً وبعضها شعراً ؛ وفى الشعر العربى بعض القصص التمثيلية كبعض شعر عمر بن أبى ربيعة ، ولكن الحق أن ذلك قليل وليس بكثير كثرته فى الشعر الأوروبى . وهذا أيضاً حق . ولكن ينبغى أن نفتح صدورنا للخلافات بين الآداب من هذا النوع . فليس بضرورى أن تتبع الأمم منهجاً واحداً فتقسم نفسها إلى هذه الأبواب الثلاثة من الشعر ، وإن كان أساس الأدب كله واحداً . كالمأكول والمشروب ، فأساسه كله حاسة الذوق وما يؤكل وما يشرب ؛ ولكن أمة قد تفضل البطاطس على كل أنواع المأكولات ، وغيرها يفضل صنفاً آخر ، سواء فى ذلك الأفراد والأمم . ثم هذا لا يظن فى أن أساس كل تقدير يرجع إلى حاسة الذوق وانفعالها مع المأكول والمشروب ، فهذه الآداب العربية مالت بطبيعة بيتها إلى الأدب المكشوف ، والآداب الأوربية مالت بطبيعة بيتها إلى الأدب المستور .

والآداب الغربية إن تفوقت على الآداب العربية فى الملاحم والقصص التمثيلية فإن الأدب العربى يتفوق فى الحكم والأمثال والشعر الغنائى ولكل وجهة هو مؤلّها . ورحابة الصدر تسمح بكل هذه الفروق كما تسمح للأسرة الواحدة أن يكون فيها مذكر ومؤنث وحليم وغضوب ، ولا يخرجها كل ذلك عن أنها أسرة واحدة .

وعابوه أيضاً بأنه يكاد يكون على نعمة واحدة من عهد الأدب الجاهلى إلى اليوم . فالموضوعات هى الموضوعات ، والأوزان هى الأوزان ، والأساليب هى الأساليب ؛ ومع اختلاف البيئات فى بغداد ومصر والشام والأندلس ظلت

كل الآداب ذات منهج واحد . وعلى العكس من ذلك الأدب الأوربي .
فيجد مؤرخها مجال القول ذاسعة في نوع من الأدب وجد بعد أن لم يكن ، ونوع
من البحور وجد بعد أن لم يكن ، وأدب مطبوع بالطابع الألماني ، وأدب
مطبوع بالطابع الإنجليزي ، وأدب مطبوع بالطابع الفرنسي ، تبعاً لتغير البيئات
والزمان والمكان . أما الأدب العربي فتشابه : الأدب المصري والأدب الأندلسي
يشبهان أدب بغداد ، وأدب القرن التاسع عشر يشبه أدب القرن الرابع أو الخامس
من غير كبير تغير .

وهذا اعتراض وجيه سببه ما عرف عن الشرق من جمود وخمود عقليين
وقلة ابتكار وحب تقليد . فإن وجد بين الشرقيين مبتكر كابن خلدون
فذلك نادر .

وهذا العيب ليس مقصوراً على الأدب . فهذا هو الشأن في الفقه والنحو
وكل العلوم . فتمى نحرر من ناحية سرى التحرر إلى النواحي الأخرى ، والمأمول
في الأدب أن يكون أسبق إلى التحرر لأن التجارب علمتنا أن الأدب إرهاب
للعلم والفلسفة ، ولأن من عناصر الأدب الأربعة عنصر الخيال وليس الابتكار
أول أسره إلا خيالاً يتحقق فيما بعد . والله يوفق .

(٤٠) يروون أن الحريري لما اخترع المقامات شك في أنه واضعها ،
وطلب إليه أن يضع مثلها عن موضوعات عيّنت له فلم يستطع . وهذا صحيح ،
فبعض الكتّاب يحسن أن يكتب فيما يختار ، ولا يحسن أن يكتب فيما يختار
له . وبعض الكتّاب على العكس ، وبعض الكتّاب يحسن أن يكتب فيما
يختار وما يختار له على السواء . وهذا أقدر ، وهو تابع لاختلاف الاستعدادات
والميلكات . فالنوع الأول قدير في ناحية معينة لا يحسن غيرها ، ولذلك لا يكتب
إلا فيما يحسن . والبعض يحار بين الموضوعات ، أيكتب في هذا أم في ذاك ؟
ويتردّد كثيراً فيأذا يكتب مع سعة قدرته . فإذا حدّد له موضوع رحه ذلك

من تردده فكتب وأجاد . وبعضهم قد ير على أى موضوع وليس عنده تردد . فهو يجيد الكتابة فيما يريد ، وما يراد منه . وهذا ينطبق على أدبائنا فى العصر الحاضر ، فمنهم من يحسن المقال ولا يحسن القصة ، ومنهم من يحسن القصة ولا يحسن المقال ، ومنهم من يحسن الشعر ولا يحسن النثر والعكس وهكذا . وكذلك الشأن فى الملكات الأخرى ، فمن الأدباء من لا يحسن الحديث ولكنه يحسن الكتابة ، كالذى حكى عن البحتري أنه لم يكن يجيد الإلقاء ، ويرجو آخر فى أن يلتقى له شعره . وكذلك كان فى عصرنا المرحوم شوقى بك ، يحسن الشعر أكثر مما يحسنه حافظ إبراهيم ، ولكن حافظ إبراهيم كان يحسن الحديث أكثر من شوقى ، وكان مجلسه ظريفاً يثير الضحك إلى أقصى حد ، وربما كان نصف الإعجاب بشعره مرجعه إلى حسن إلقاءه ؛ فترى من تُحس باطلامه فى الحديث إذا تحدّث ، وإشراقه فى الكتابة أو الشعر إذا كتب أو شعر .

وقد اشترطنا فيما مضى للأصاوص أن تكون عنده ملكة القصّ وهى ضرورة فى القصص ، حتى إن هذه الملكة تعادل جودة القصة نفسها ، فقد يقصّ قاصُّ قصة فتجعلك من حسن قصته وحركات وجهه وغمابة شكله تضحك ملء شديك ، ويقصّ آخر قصة وليس لديه هذه الملكة وربما كانت القصة أجود من سابقتها ، ولكنه يقرّك بقصتها . والله يرزق من يشاء ما يشاء ...

(٤١) نلاحظ أن العرب من أول أمرهم — والحق يقال — لم يتفننوا فى أدبهم التفنن الواجب عليهم سواء من ناحية الكمية أو من ناحية الكيفية ، وربما كان هذا أول مظهر لذلك الأدب بعد الإسلام ، فقد كان الأدب الجاهلى غنياً واسعاً فى ألفاظه وتراكيبه وموضوعاته ، فلما جاء الإسلام لم نجد من التطور فى الأدب ما كنا ننتظر ، فالموضوعات هى الموضوعات من هجاء ومدح وغزل وفخر ونحو ذلك . والأساليب هى نفس الأساليب ، بل نحن كنا ننتظر أن

الفتوحات الإسلامية العظيمة وما رآه العرب في البلاد المفتوحة من أشياء لم يروها من قبل كالنيل في مصر ، ودجلة والفرات في العرب ، والمناظر الجديدة في خراسان وما وراء النهر أن تطلق أسنتهم بالقول كما أطلقت الجاهليين في الصحارى ونباتها وحيوانها ، فأين الغدير من النيل أو من دجلة والفرات ؟ وأين غمدان من الأهرام ؟ وأين وأين إلى آخر ما لا عداد له ، ولكنه التقليد أبكم أسنتهم . وربما التمسنا عذراً للفاتحين لا نشغالهم بالمسائل الحربية والسياسية ودهشة الفتح ونحو ذلك ، فما بال غير المحاربين ممن سكنوا هذه الأقاليم .

واستمر الحال على هذا المنوال طوال تاريخ الأدب العربي ، فالحروب الصليبية مثلاً لم تنل من القول حقها بل إن الشعراء الأوربيين قالوا في الحروب الصليبية أكثر مما قال الصليبيون المسلمون ، والذي قاله لا يكتفى لإشباع النفس . ثم كان تحت نظرهم الأدب الهندي والصيني والفارسي واليوناني والروماني ، وقد اطلعوا على هذه الآداب كلها وفيها من غير شك فنون من القول لا عهد للعرب بها كالأقاصيص الفارسية والتمثيلات اليونانية والخرافات الهندية ونحو ذلك ، فلم لم يأخذوها ويحتذوها ، بل وقفوا عند الأدب الجاهلي وحده يحتذونه . هذا موضع من الغرابة يدل على قلة الابتكار في الأدب العربي وظلوا يعرضون عن ألف ليلة وليلة لا يستوحونها حتى استوحاها الأوربيون . وهذا مما جعل مؤرخ الأدب العربي لا يستطيع أن يفرق بين أدب عصر وأدب عصر آخر إلا بمنظار معظم .

والأوزان هي الأوزان من عهد أن خلق الجاهليون الستة عشر وزناً إلى اليوم مع أن الأوزان ترتبط تمام الارتباط بالأذن الموسيقية ، والأذن الموسيقية التي كانت تستحسن بعض الأغاني والأوزان الموسيقية استحسنت في عصرها الحديث أغاني أخرى حتى ربما اقتبستها من الأوزان الأوربية .

بل نرى أن اليبثات تختلف كما بين العراق والأندلس فيحذو الأندلسيون
في أدبهم حذو الأدب العراقي ولا يزيدون فيه إلا أشياء طفيفة .
والموضوعات هي الموضوعات والشكل هو الشكل ، ويؤلف أبو علي القالي
وابن عبد ربه فينقلون لنا في كتبهما الأدب الشرقي .

هذا شيء يستوقف النظر ويحار المتفلسف في تعليل ذلك وما رسوا به من
العمى ، حتى المحدثون الذين تعلموا اللغات الأوربية غيروا تنقيداً بتقليد لا تقليداً
باجتهاد ؛ فبدل أن كان الأولون يقلدون العصر الجاهلي أصبح هؤلاء يقلدون
الأدب الأوربي تقليداً تاماً ، قول يأتي عليهم زمن يتغلب عليهم الوعي الأدبي
فيخلقون وابتكروا ويستاهمون بيناتهم ويستوحون نفوسهم ويحوزون كل
الفنون الأدبية في الأمم المختلفة ثم يخلقون ما يناسب أنفسهم ؟
ذلك هو المأمول لأنه يتفق وطبيعة الأشياء .

إن هذا الشأن الذي اعترام في الأدب هو الشأن الذي اعترام في الفقه والعلم
والفلسفة ، فلم يقفل باب الاجتهاد في الفقه وحده ، ولعله قبل ذلك أقفل أيضاً
باب الأدب والبلوى تم ، فإذا انكشفت هذه النعمة وفتحت أبواب الاجتهاد في
علم أوفق رأيت الأبواب الأخرى قد فتحت بإذن الله .

(٤٢) من أحسن ما قال المرزوقي في مقدمته على شرح ديوان الحماسة : « إن
العرب كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة
في الوصف . ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال ،
وشوارد الأبيات :

وعيار اللفظ الطبع والرواية والاستعمال . كما سيلم مما يهجنه عند العرض
عليها ، فهو المختار المستقيم . وهذا في مفرداته وجماله مُراعى ، لأن اللفظة قد
تستكرم بانفرادها ، فإذا ضامها مالا يوافقها عادت الجملة هجينة .

وعيار المعنى أن يُعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب . فإذا انعطف

عليه جَنَمَتَا القبول والاصطفاء ، مستأنساً بقرائنه ، خرج وافياً . وإلا انتقص بمقدار شَوْبِهِ ووحشته .

وعيار الإصابة في الوصف ، الذكاء وحسن التمييز . فما وجدناه صادقا فذاك سبب الإصابة فيه . ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال في زهير « كان لا يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال » فإذا أضيف إلى ذلك المقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والثامها ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكل اللفظ المعنى ، وشدة اقتضائهما للتأقافية . حتى لا تكون منافرة بينهما . فهذه صبعة أبواب هي عمود الشعر .

(٤٣) مما يدل على اتصال الشعر بالغناء قول حسان :

تَفَنَّنَ فِي كُلِّ شِعْرٍ أَنْتَ قَائِلُهُ إِنَّ الْغِنَاءَ لِهَذَا الشَّعْرِ مَضَارٌ

عنى بذلك أن الغناء وسيلة لتحسين الشعر واختياره . فإذا أردت أن تمتحن شعراً ، أجبده هو أم ردى ، فغنه ، فما لان للأغناء ووقع توقيعاً حسناً فشعر حسن ، وإلا فردى .

وكان حافظ إبراهيم رحمه الله يتغنى بشعره ، فإذا غنَّاه عرف إن كانت اللفظة قلقة أو وضعت موضعها . كما عرف إن كانت اللفظة جيدة أو غيرها خير منها .

ويروون أن النابغة أقرت سريرة فخاف الحاضرون منه إن هم نبهوه على الإقواء ، فاستدعوا جارية تغنى أبياته ليعرف من غنائها أنه وقع في عيب الإقواء . فالغناء معيار الشعر ومحك ليعرف منه جيده من رديته .

(٤٤) يقول قوم إن المسئول الأول عن تدهور أخلاق العرب تدهور الشعر

العربي ، فهو أدب معدة لا أدب روح . أكثره في مديح على إعطاء أو إرضاء عاطفة بانغماس في اللذائذ ، وأدب المقامات نفسها أدب استجداء ، لنيل شيء قليل من الماء . أما أدب السموات ، والدعوة إلى البطولة والإعجاب بها

والتغنى بالنبل والشجاعة ، قليل نادر . مع العلم بأن للشعر تأثيراً كبيراً في الأشخاص . فقد رووا لنا أن عبد الملك أراد مرة أن يستمتع بنسائه الجميلات فاستحضر بيتاً من الشعر ، فنفر عنهن وخرج إلى الحرب . وكذلك فعل مصعب ابن الزبير وأبو جعفر المنصور .

وهو قول مبالغ فيه ، فهذه الأبيات التي تمثلها هؤلاء ودفعتهم إلى الشجاعة لا تزال باقية . وقد أضيف عليها أمثلة كثيرة من شعر المتنبي وأبي فراس وغيرها من الشعراء . نعم ، إن كثيراً من الشعر العربي ، مع الأسف ، قيل في مدح أو هجاء أو في تلوذ بالخمر والنساء ، مما أضعف هم الناشئين ، ولكن ؛ ليس ذلك كل الشعر العربي . وربما عالج الشعراء المحدثون هذا العيب بإفاضتهم في القول بسامى المعاني ، والتمدح بنبيل الصفات .

وقد سمعنا في هذه الأيام العصبية أحاديث في الإذاعة وأغانى وطنية تشهد بهذا التطور المعجيب . وكل هذا وذاك يدل على ما للأدب من ظل على الحياة الاجتماعية .

(٤٥) يعجبني قول التبريزي في شرحه لقصيدة تأبط شرًا المشهورة التي مطلعها :

« إن بالشعب الذي دون سلعٍ لقتيلًا دمه ما يطلّ

عند قوله :

جَلّ حتى دقّ فيه الأجلّ الخ

أنه رجح أن القصيدة ليست لتأبط شرًا ، لأن قوله جلّ حتى دقّ فيه الأجلّ ، لا يمكن أن يصدر من أعرابي بدوي كتأبط شرًا . ووجه الإيهاب بهذا فقد أنه نقد من القليل النادر الذي يؤمن بأن الأدب ظل للبيئة . فإذا كانت البيئة بسيطة ساذجة لم يصدر من أصحابها إلا البسيط الساذج ، وإذا كانت معقدة لم يصدر من أصحابها إلا المعقد المركب . فالبدوي الأعرابي لا يستطيع أن

يقع على معنى جلّ حتى دقّ فيه الأجل ، لأنه معنى دقيق لا يمكن أن يصدر عن البدو .

ومما يعجبني أيضاً في هذه القصيدة نقد ناقد آخر بأن هذا الشعر لا يمكن أن يكون لتأبط شراً ، لأن سَلْعاً التي وردت في شعره من نواحي المدينة ، وتأبط شراً من نواحي هذيل . وأين مسكن هذيل من سلع ؟ فهو نقد من نوع آخر ، وهو مبني على معرفة مواقع البلدان . وكما يعجبني كثير من نقود ابن خلكان ، وإن كانت من الناحية التاريخية لا الأدبية ، فإنه كثيراً ما يكذب الحادثة لأن تاريخها لا يوافق تاريخ من حكيت عنه ، أو لأن الحادثة روت اجتماع جماعة لا يمكن في عرف التاريخ أن يجتمعوا معاً ، وهذا كثير فيه ، وفضيلة من فضائله . أما ابن خلدون ، فله نقد بديع من نوع آخر وهو أن الحوادث ليست من طبيعة الأشياء ، فإن للأشياء طبيعة تقتضى السير في طريق خاص . فإذا انحرفت يمنة ويسرة كان ذلك على خلاف طبيعتها ، فدلّ انحرافها على أنها لم تحدث ، وإنما اختلقها بعض المؤرخين لا اعتماداً على الحقيقة والتاريخ ، ولكن خلقها خيالها .

وكل هذه نقود جيّدة ، سواء في الأدب أو الجغرافيا أو التاريخ . وهذا يفتح نظرنا لنقد قيم حين نريد أن نمتحن صدق ما حكى عن النص ، وما نسب إلى شاعر أو نائر . فإن تحقيق التاريخ وتحقيق الوقائع يدلنا على أن النص لفلان أو ليس له . وربما كان أول من التفت إلى هذا ابن سلام في كتاب طبقات الشعراء ، فكثيراً ما يتبين له من دراسة بيئة الشاعر وحالته أن القصيدة المنسوبة إليه من وضع الوضاع .

(٤٦) ينسب الجاحظ لبشر بن المعتمر صحيفة في البلاغة والنقد تمدّ في نظرنا من أقوم ما كتب فيهما . وربما كان كل ما كتب المسلمون في النقد والبلاغة مؤسساً عليها . وبشر بن المعتمر هذا كان معتزلياً ، فإذا قلنا إنه بفضل بشر هذا

لمعتزلى وفضل الجاحظ المعتزلى أيضاً تأسست البلاغة والنقد لم نَبْعُد عن الصواب . وقد كان بِشْر هذا تَحْأَساً يعرف الإمام والعبيد ، ويتخيرهم ويعلم مقدار كل منهم . فلعل هذا مكنه من إملاء هذه الصحيفة وهي « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إليك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرأ ، وأشرف حسباً ، وأحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ . وأجلب لكل عين وغرّة من لفظ شريف ، ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكّد والمطاوله والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً ، وخفيقاً على اللسان سهلاً . وكما خرج من ينبوعه ، ونجم من معدنه . وإياك والتوغر ، فإن التوغر يسلمك إلى التعقيد . والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك . ومن أراد معنى كريماً فليتمس له لفظاً كريماً ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف . ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك ، قبل أن تلتبس إظهارهما ، وتوفهن نفسك بملاستهما ، وقضاء حقهما . فكن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً ، وفخماً سهلاً ، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً ، وقريباً معروفاً ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة . وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك . إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلتطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء . فأنت البليغ العام . فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك

وفي أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل إلى قرارها ، وإلى حقها من الأما كن المقسومة لها ، والقافية لم تحل في مركزها ، وفي نصابها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة في مكانها ، نافرة من موضعها ، فلا تكرها على اغتصاب الأما كن والنزول في غير أوطانها . فإنك إذا لم تتعاط قرص الشعر الموزون ولم تكلف اختيار الكلام المنشور . لم يعبك بترك ذلك أحد ، فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ، ولا محكماً لسانك ، بصيراً بما عليك وما لك ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن ابطلت بأن تكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطبع في أول وهلة ، وتعاصى عليك بعد إجابة المكرة ، فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه يياض يومك وسواد ليلك . وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواناة . إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرق ، فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث عرض ، أو من غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأحقها عليك . فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينك نسب . والشئ لا يحن إلا إلى مُشاكله . وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة . كما تجود مع الشهوة والمحبة . فهذا هذا . وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجمل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً . حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم على أقدار المقامات . وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات . فإن كان الخطيب متكلماً ، تجنب ألفاظ المتكلمين . كما أنه إن عبر عن شيء من صناعة الكلام ، واصفاً أو مجيئاً أو سائلاً ، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين . إذ كانوا لتلك العبارات أنهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحق ، وبها أشرف . ولأن كبار

المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ من أكثر البلغاء .
وهم تخبروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك
الأسماء . وهم اصطالحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم . وصاروا
في ذلك خلفا لكل سلف ، وقدوة لكل تابع .»

فأنت إن تأملت هذه الصحيفة وتأملت الكتب التي ألفت بعدها
في البلاغة كالصناعتين لأبي الملال العسكري وكتب عبد القاهر الجرجاني
وأمثالها ، وجدتها تقريبا ليست إلا شرحا لهذه الصحيفة أو تعليقا عليها والله أعلم .
(٤٧) يقسم النقاد العرب الأدباء وخصوصا الشعراء إلى مطبوعين ومصنوعين

فيقولون : شاعر مطبوع ، وشاعر ليس بمطبوع ، ويعنون بالشاعر المطبوع من
جاءه الشعر على الفطرة والطبيعة من غير تكلف ولا تصنع ، وبغيره من تعلم
الشعر تعلمًا ، وتكلفه تكلفًا . ويمثلون للشعر المطبوع بأسرى القيس ، وشار .
ويعنون لغير المطبوع بأبي تمام . والتصنع لا يمنع أن يأتي الشعر أولا على السليقة
ثم يأخذ الشاعر في تجميله ، وهو تقسيم صحيح ظاهر . وهو ينطبق على الفن كله
من شعر ونثر وموسيقى وتصوير ، فهناك بعض الفنانين لديهم ملكة فطرية تنمو
بالتمرين لا يعرفون كيف أنت ، ولا كيف تعالج الفن . ولو سألت الشاعر منهم
مثلا كيف يشعر لما عرف أن يجيبك . غاية الأمر أنه يحس إحساسًا غامضًا بحاجته
إلى الشعر ، ثم يتدفق منه الشعر .

وكان الشعراء الأولون لسذاجتهم وغموض هذا المعنى عندهم يسمون هذا
المعنى « شيطانا » فيزعم كل شاعر أن له شيطانا يمدده بالشعر . وإذا لم يأته الشعر
لسبب من الأسباب قال : إن الشيطان لا يواتيني ، والحق أن الشعراء المطبوعين
عندهم ملكة غامضة لا يرتاحون إلا إذا طأوعوها ، وشعروا ، كالذي حكى عن
شاب ألماني عرض ديوان شعره على أستاذ ألماني أيضا ورجاه أن يقرأه ويقول له :
إن كان سيكون منه شاعر جيد أولا ، فردّه إليه الأستاذ من غير أن يقرأه

وقال له : « إن كنت تستطيع أن لا تشعر وتستطيع أن تهدأ إذا شئت ، لم يكن منك شاعر . وإن كنت لا تستطيع أن تسكت ولا تهدأ ثورتك حتى تشعر ، كان منك شاعر » . وهو قول حق يدل على أن الشاعر المطبوع مشبوب العاطفة لا يستريح حتى يخرجها في شعره . غاية الأمر أن هذا لا يمنعه من إحلال لفظ محل لفظ ، ومعنى محل معنى للذوق . ويصح أن نسمي هذه الملكة إلهاماً أو لقانة أو اسماً من هذه الأسماء تولد مع الناشئ حتى يبلغ السن المناسب فيكون منه شاعر مطبوع ، أما من أخذ يفوص الأعماق حتى يستخرج معنى أو يسبح في السماء أو يعمل خياله إعمالاً شاقاً حتى يتأني له ما يريد فليس بذى شيطان ، وبعبارة أخرى ليس بذى إلهام . وهذا الإلهام غير العقل . فالعقل يحتاج إلى مقدمات على شروط خاصة تنتج منها النتائج ، ولهذا قال البحترى :

كفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

أما هذا الإلهام فلا منطلق له ولا مقدمات ولا نتائج له . إلهاماً هو وحيٌ بوحى . استمد له بعض الأشخاص بالفطرة . ولا يمكننا في دقة أن نحكم من أين أتى هذا الإلهام وهل هذا الشخص منهم أو لا ابتداء ، كما لا يمكننا الحكم بأن هذا المغنى أو المغنية لم كان أو لم كانت صوتها حسناً من بين الملايين المحلوقه كخلقها وفي بيتها ومثل ظروفها ؟ والشعراء المطبوعون يختلفون في مقدار جودة طبيعتهم ، كما يختلف الشعراء المصنوعون في اختلاف صنعهم .

(٤٨) شاع بين العرب أن الشعر يحلو بمقدار ما يكون فيه من كذب ، وهذا نظر خاطئ ، ربما بتوه على أن الشعراء قد يمدحون فيغالون في المدح ، أو يكذبون فيغالون في الكذب ، فترى مثلاً أن الشاعر إذا أعطى شيئاً ولو قليلاً جعل المدح غيثاً ، وإذا منع عنه العطاء لسبب من الأسباب جعله جدباً أو نحو ذلك . وقد يكون غير المدح أكبر قيمة في الواقع من المدح . ولذلك نرى أن الشعر لا يقاس كما يقولون بمقدار كذبه ، وليس بصحيح أيضاً ما يقولون إن أغلب الشعر أ كذبه ، فذوبة الصدق في كل فن خير من عذوبة الكذب ...